نظرة جديدة الى قصيدة السياب

« أغنية في شهر آب »

بقلم الدكتور اريك لويا

لا ندري على وجه التحديد لماذا لم تحظ هذه القصيدة الفريدة بالحظ اللائق بها من عناية الادباء واهتمام النقاد فاذا هي تنحي جانبا أو تكاد كلما بادر أديب أو شاعر الى تناول نتاج السياب الشعري .

لقد نشرت (أغنية في شهر آب) أول ما نشرت ، على ما نعلم ، في هذه المجلة (الآداب) في العدد الخامس من السنة الرابعة (مايو عام ١٩٥٦ ص ١٦٠) كمحاولة لكتابة الشعر بأسلوب جديد تطرحها « الآداب » على القراء وتطلب فيها آراءهم . ثم علق عليها الاستاذ هنري صعب الخوري في العدد التالي من « الآداب » (عدد ٦ ص ٦٧) باقتضاب وبشيء من التهرب حيث قال : « انها محاولة موفقة تدين الى المتدارك بالكثير ، واترك أمر التأويل والحصر خوفا من السقوط فيما سقط فيه (آلان) حين عمد الى قصائد بول فاليري ... » .

والسياب في هذه القصيدة ـ كما أشار الى ذلك الاستاذ الخوري عن كثب ـ متأثر بالشاعر الانكليزي (ت. س. اليوت) يعمد الى اعطائنا مجموعة من الصور سريعة الانتقال ، كتلك الصور التي يعكسها الفانوس السحري تكاد تكون مفصولة منعزلة بعضها عن بعض ، ولكنها في مجموعها وتلاحقها توحي الينا بجو معين ، متنوع في التفاصيل ، غير انه الى ذلك متراص متماسك في الصبغة والانطباع الذي تتركه هذه الصور كلها بمجموعها .

والسياب يفتتح أولى هذه الصور بتموز يحتضر ايذانا باقبال الشتاء المظلم . ثم يلحق هذه الصورة دون انذار بصورة جديدة لما يبدو انه غرفة في دار يسودها الضجر والفراغ النفساني الموحش يدعو فيها بطل القصيدة السلبي Anti - hero الذي يصر الشاعر على ترك جنسه مبهما ـ فلا مجال لنا أن نعرف ما اذا كان هذا البطل رجلا أو امراة ـ تدعو هذه « الشخصية » مربية الاطفال الزنجية الى أن تضيء النور ، فالليل يرهب الذين تملأهم الوحشة والفراغ ، ومن شأن النور والضياء أن يخففا من الوحدة والقلق .

ولعل السياب قد اختار لمربية الاطفال أن تكون زنجية (وفي البصرة وجنوب العراق مسقط رأس الشاعر ولدى معظم الاسر المترفة في العراق كثيرا ما توجد خادمات ومربيات أطفال من أصل زنجي) لكي يرمز بها الى أولئك الناس الجوف الذين لا صلة وثيقة تشدهم حتى الى أطفالهم فيدعون تربيتهم لنساء غريبات أو قل حتى لنساء لا يثقون بكفاءتهن الثقافية أو الطبقية ، فاننا لا نكاد نرى لاقحام صفة الزنجية مبررا آخر . ومربية الاطفال هذه ليست بأقل ضجرا وقلقا وبردا من سيدها ـ أو سيدتها ـ فتفرح وتقول : « الجاز من الدم ايقاع » . وموسيقى الجاز بضرباتها السريعة وايقاعها البدائي المثير تقوم مقام قرص دواء منشط وقتي يطرد من النفس غبار السأم والقلق ، فعلها فعل مخدر تتهزم به النفس من فراغها الروحي ووحشيتها وقلقها عن طريق الانهماك في نشاط جسماني (١) . وليس مستبعدا أن يكون السياب قد تعمد استعمال موسيقى الجاز كرمز كي يشير عن كثب وبصورة رقيقة الى ذلك الافراج عن النفس الذي يجده الكثيرون في هذه الايام في النشاط الجنسي ...

وبسرعة ودون انذار ، ينتقل بنا الشاعر الى منظر آخر ، الى ضيوف يبدو انهم بدورهم من الجوف الذين نخرهم الفراغ والقلق اللذان يرمز اليهما الشاعر بالبرد ـ جاءوا يزورون مرجانة وسيدها ـ أو سيدتها ـ لينسوا أنفسهم وينبذوا وحدتهم (ليتدفأوا) في تجاذب أطراف حديث لا صلب فيه ولا عمق ولكنه حديث عن الغير بمغبة الغير ، أو كما يقول السياب : (ليلوذوا بمدفأة من أعراض البشر) !

فهم اما يغتابون الناس لان مآسي الغير او نواقصهم تمدهم بشعور بالرفعة يدرأون به مركب النقص فيهم : (والضيفة تضحك وهي تقول : خطيب سعاد ـ جافاها وانطوت الخطبه ـ الكلب تنكر للكلبه) .

واما يتحدثون عن حياتهم الجوفاء الخاوية التي لا مثيرات فيها ولا حب :

سيعود اذا انتصف الليل
زوجي سيعود الى الدار
من بيت صديق أو بار
لا شوق يعلق بالرقاص ولا بالعقرب أبصاري

---

(١) يقول البروفسور رولو مي Rollo May : « يعلم أطباء النفس ان القلق تعويض عن الشعور بالعقم . فالرجال والنساء كي يثبتوا انهم يتمتعون بالقوة الجنسية ، يقاومون شعورهم بالوحدة والوحشة ويقومون بمحاولة يائسة للفرار من شعورهم بالفراغ والخشية من عدم مبالاة الغير بهم » .

Prof. May Rollo : Antidotes for the New Puritanism : Saturday Review, March 26, 1966 P. 2.

لا آهة من رهب تعلو
من رنة المفتاح في الباب
وضياء من شق ينساب
كالماء المالح أشربه حتى تتفطر أغواري !

واما يتحدثون عن غيرهم في أمور تشف عن حسد وغيرة كما في هذا الوصف لحلية ثمينة مهداة :

« وماس وبقيتها ذهب
وهدية والدها ؟ الله هدية والدها ... عجب
صياد بين يديه شباك
تتلامح ملأى بالاسماك
ذهب وزعانف من فضه
ولآلىء توهم ان هياكلها تثب
وبان لصائدها خضه ! »

ثم ينتقل المنظر فجأة الى :

« ليل وجليد
يتساقط عبرهما صوت : رنات حديد
وعواء ذئاب يخفتها »

ولعله يرمز الى الطبقة الحاكمة في العهد الملكي الذي كرهه السياب وكرهه معه معظم أبناء جيله ، تلك الطبقة التي تستغل خواء الشعب لتعد السلاح (رنات حديد) لتخضعه أو تقتله به بينما تعوي كالذئاب بشعارات وطنية أو ما أشبه لتخفي ما هي تقوم به في الواقع .

ولكن السياب لا يقف طويلا عند هذه الصورة القاتمة ، انما ينتقل منها الى صورة أخرى نجد فيها الزوجة (من هي ؟ لا ندري ، بل لعلها مرجانة أو سيدتها أو لعلها امرأة أخرى مما يرمز به السياب الى عمومية هذه الشخصية) تدعو زوجها الذي لا تحبه والذي (لا شوق يعلق بالرقاص ولا بالعقرب) ابصارها شوقا اليه وترقبا لعودته ، ذلك الزوج الذي تشعر نحوه (كالماء المالح أشربه حتى تتفطر أغواري) ـ تدعوه الى مشاركتها بردها وخوائها عن طريق اغتياب الناس (فالناس كثير والظلماء ـ نقالة اسعاف سائقها أعمى) وبالاخص لان زوجها أجبن من أن يثور أو يقوم بأي فعل ايجابي لمقاومة « البرد » ، ذلك الجمود الروحي المليء بالضجر والوحدة (لان فؤادك جبانه) ...

والسياب كتب هذا الشعر في يسر الشاعر المحترف القدير وسلاسته ، فهو ينبض بالايقاع والنغم . وقول الاستاذ الخوري بأن القصيدة تدين الى المتدارك بالكثير لا يفسر براعة هذا الشعر ، فالمتدارك انما هو قالب معروف ، وما يوضع في القالب عادة أهم من القالب ، فان كان رديئا سخيفا فان القالب لا يشفع له في شيء . ومهما يكن من أمر فان سلاسة السياب في أنشودته هذه تكاد توهم القارىء أو السامع ان الشعر قد كتب دون عناء ، ولكن امعان النظر فيه يشير الى ان نظمه لا يمكن أن يكون قد أتى عفوا ، فالابيات تكاد تتراقص ايقاعا ونغما رغم ان محتوى القصيدة بعيد كل البعد عن الرقص والمرح . ولعل السياب قد عمد الى ذلك عمدا ليبرز التناقض بين محتوى الانشودة القاتم الرهيب وبين شكلها الخارجي النابض بالحياة والايقاع ، ليرمز بذلك الى واقع المدينة التي تبدو مرحة نابضة (شكل القصيدة) ولكنها تخفي تحتها بؤسا وضجرا وحيرة وعدم استقرار (محتوى القصيدة) ...

ومهما يكن الامر ، فالقصيدة في اجمالها وعلى صورها السريعة الانتقال التي تبدو لاول وهلة عديمة الصلة فيما بينها ، توحي الينا في مجموعها بذلك القلق أو قل الخوف الخفي وعدم الاستقرار الباطن الممزوج بالشعور بالوحشة والضياع الذي يساور أشخاص القصيدة فيعمدون الى الالتجاء بعضهم الى بعض ليتدفأوا أو لينسوا أنفسهم بالحديث الفارغ ، رغم انعدام حرارة الحب التي تربط فيما بينهم .

والسياب ، كأليوت قبله حين يركن الى الرموز والاساطير ، يضفي على أشعاره مستويات وأبعادا جديدة : ف (تموز) الذي هو اسم شهر في الصيف هو كذلك اسم اله الربيع البابلي . وموت (تموز) الشهر يرمز في بعد واحد أو في مستوى واحد الى انتهاء فصل الصيف ، ويرمز في مستوى ثان الى موت تموز الاله البابلي يقتله الخنزير البري (الليل : الخنزير الشرس !) ، وموت تموز هذا يرمز الى موت الحياة نفسها عند أشخاص القصيدة وان بدوا أحياء يرزقون ، فانهم لشدة انغمارهم في (برد) أرواحهم وتخوفهم وقلقهم لا يحركون ساكنا أو لا يملكون حراكا لرد هذا الموت عنهم (تموز يموت ومرجانة ـ كالغابة تقبع بردانة) .

ولا بد لنا أن نعيد الى الذاكرة هنا ان هذه القصيدة قد نشرت عام ١٩٥٦ ، ولعلها نظمت في ذلك العام بالذات أو قبله بقليل . والعراق اذ ذاك كان لا يزال يقبع تحت نظام الحكم الملكي المسنود بطبقة الاقطاعيين وأصحاب الاراضي ، تلك الطبقة التي نقم عليها السياب ونقمت هي عليه مع جل أبناء جيله من الشباب العراقي المتوثب . وشاعرنا السياب كان ينوي التعبير عن تلك الحالة المؤسفة اليائسة في العراق التي رأى فيها ان أمثال نوري السعيد من الحكام انما كانوا بالفعل يقتلون حياة العراق وحرية شعبه و « يغتالون » حقه في التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . غير ان السياب أدرك كل الادراك انه لو قال ذلك في شعره صراحة ودون تمويه لكان زج في غياهب السجون والمعتقلات تفله السلاسل الحديدية والقيود كغيره من الكثير من شباب العراق (ليل وجليد يتساقط عبرهما صوت رنات حديد ـ وعواء ذئاب تخفيها) .

وشعب العراق ، أو هكذا تراءى للسياب ، غائر قابع في برده الذي أثلج روحه والفراغ الذي خدر كل عضو من أعضائه ، قد فقد كل جرأة على الكفاح والثورة ، فغدا في حالة شلل لا يملك معها أن يهب في وجه طغاته ،

مدينتي والخاتم المسروق

« قالت جدتي : ... ووقف الشاطر حسن امام ثلاثة طرق حائرا واستند الى الحائط وبكى »

بكيت على مشارفها البعيدةِ ...
حين نام الناس
وأبكيت البيوت الحمر من حولي
وسرح مجرّح القدمين ...
سرت معذّب الاحساس
وقيل لنا : وقوفا وارفعوا الايدي
وقلبك يا مدينتنا
سقاه الحرس الليلي مرّ الكاس
ووجهك يا مدينتنا
بكى يأسا
دعي الاحزان والبؤسا
وسمي كل شيء باسمه ...
فالكأس ما عادت لنا كأسا
دعي الاحزان ... هذا اليوم يومك ...
فارفعي الرأسا
دعيه يطاول الزرقاء
سأركب مهرتي الشهباء
وأمتشق الحسام وأنصب الترسا
ولكنـي
سأرحل عن منازل أنت سيدها
وأنت الآمر الناهي
وأنت وأنت قائدها
فقد أوشكت ان اغرق في كأسي
وقد أوشكت ان يقتلني يأسي

***

مشينا في دروب النفي ...
في الصحراء في الزرقاء في المركب
وهذي دربنا الاولى
تعيد الحر مفلولا
تصد ولا ترد الغائب المتعصب
وهذي دربنا الاخرى
نعيش بها عبيدا نرتضي بالجور
تقول لنا بأن نحيا بلا شفةِ ...
ندور كما يدور الثور
وهذا دربنا الثالث :
يقود الى جزيرتنا البعيدة ...
حيث تسكنها الشياطين الشتائيه
وتسرق خاتمي جنّيه
وأصرخ يا علاء الدين ضاع السر ...
كيف أفك هذا الطلسم الاسود
ولا « شبيك » لا « لبيك » ...
فاسمع صرخة المرتدّ
فقد أوشكت يا أبتاه أن أكفر أن أرتد .

القاهرة

عز الدين المناصرة

رآه السياب قابعا في قعر داره ملتحفا عجزه وبرده :

(تموز يموت على الافق
وتغور دماه مع الشفق .. .
تموز يموت ومرجانه
كالغابة تقبع بردانه)

بل ان شاعرنا قد رآه فيما هو أنكى من ذلك ، رأى الشعب العراقي في ٥٦ ــ ١٩٥٥ يتهزم من العمل الايجابي ويفر من الكفاح الى الاحلام والى حـــلول وهمية وعبر خرافية لا تتطلب منه أن يقوم بعمل ، أي عمل ! فيقول :

(تموز يموت ومرجانه
تتعوذ من عقد السحر
والليل الراكد بالخضر !!!)

فشعب العراق ، الذي يرى السياب ان حكامه جاروا عليـــه وأسلموه الى (الليل الراكد) يعج بأوبئة الفقر والجهل ، هذا الشعب العراقي يراه السياب راضخـــا لا يهب في وجه ظالميه انما يدرأ عنه هذا (الليل الراكد) الذي هو الفقر والجهل والايمان بالاحـــلام والخرافـــات (عقد السحر) ــ يـــدرأ الشعب العراقي كل هذه ... بخرافات لا تقل خداعا وايهاما من (عقد السحر) يدراها (بالخضر) !! والخضر هذا كما يقول السياب شخصيـــة أسطورية عاصرت الاسكندر المقـــدوني واهتدت ــ دون الاسكندر ــ الى « بحر الحياة » وعرفته حين ألقت فيـــه سمكة ميتة فعادت اليها الحياة ... وشرب (الخضر) من مائه فنال الخلود والحياة في الدارين ، الدنيا والآخرة !

فما أيسر هذا الظفر وما أهونه ، وما أقله داعيا الى العمل مطالبا به !! هكذا يرى السياب أبناء شعبه بدل أن يركنوا الى الجهاد والكفاح والعمل لادراك ما يصبون اليه ، يراهم يلجأون الى الاحلام والحلول الخرافية السهلة كتلك التي منحت الخلود (للخضر) الخامل ولم تمنحه للاسكندر المقدوني كبير قادة العالم القديم !

هذا بعض من الضوء أردنا القاءه على قصيدة فريدة للمرحوم بدر شاكر السياب لعل فيه ما يبرز ميزاتهـــا وينقذها من الاهمال الذي كان حظها حتى الآن ...

أريك لويا

أستاذ الادب العربي
في جامعة بنسلفانيا